تزكية اللّه تعالى لرسوله محمد ﷺ في القرآن الكريم

د. أيمن بن محمد الحمدان

أكاديمي سعودي، أستاذ العلوم الإسلامية المساعد
بكلية الملك عبد العزيز الحربية

ملخص البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فهذا بحثٌ مختَصَر عن جانبٍ من جَوانِب الإيمان برسالة النبي محمد ﷺ، تتمثل في دراسة ما جاء في القرآن الكريم من تزكية الله تعالى لرسوله ﷺ، ليكون ذلك من أسباب تعظيم النبي ﷺ تعظيماً موافقاً للشرع، من غير وكس ولا شطط.

والمقصود بهذه الدراسة ذكر أهم وأبرز ما جاء في القرآن الكريم من تزكية الله تعالى للنبي ﷺ في شخصه الكريم، وذلك يتمثل في تمهيد وعشرة مطالب وخاتمة:

تمهيد: في معنى التزكية.

المطلب الأول: تزكيته في نفسه.

المطلب الثاني: تزكيته في عقله وفؤاده.

المطلب الثالث: تزكيته في بصره.

المطلب الرابع: تزكيته في كلامه.

المطلب الخامس: تزكيته في سمعه.

المطلب السادس: تزكيته في صدره.

المطلب السابع: تزكيته في معلّمه.

المطلب الثامن: تزكيته في تعليمه.

المطلب التاسع: تزكيته في أخلاقه.

المطلب العاشر: تزكيته في حياته كلها.

الخاتمة.

د. أيمن بن محمد الحمدان

aymn797@gmail.com



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه، وسلَّم تسليماً كثيراً.

أما بعد؛ فإنَّ الإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة، ومن الإيمان بالرسل الإيمان برسالة رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ. وإنَّ من فروع الإيمان برسالة النبي ﷺ، الإيمان بفضائل النبي ﷺ وما اختصه الله تعالى به من الفضل والشرف والرفعة العظيمة في الدنيا والآخرة، التي بسببها كان سيدَ ولد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ليعظّم المسلمُ النبيَّ ﷺ تعظيماً موافقاً لأمر الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٨ - ٩]، والتوقير هو الاحترام والإجلال والإعظام؛ أي: لتعظموا النبي ﷺ وتجلّوه وتحترموه[١]، ومن حق النبي ﷺ على أمته أن يعظَّم التعظيم الذي عظّمه الله تعالى وزكّاه به، «فإنَّ تعظيم الرسول ﷺ وإجلاله ومحبته وطاعته، تابع لتعظيم مرسله -سبحانه- وإجلاله ومحبته وطاعته»[٢].

۞ أهمية الموضوع:

مما يبيّن أهمية هذا الموضوع أنَّه فرع من معرفة النبي ﷺ التي هي من أصول الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾[المؤمنون: ٦٩]، ومعرفة

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٣٢٩.
(٢) جلاء الأفهام، ص: ٣٩٥.

تزكية الله تعالى للنبي ﷺ داخلة في عموم الأمر بمعرفته، والإيمان برسالته، ومن تحقيق هذا المطلب العظيم دراسة ما جاء في القرآن الكريم من تزكية الله تعالى للنبي ﷺ، إذ حفل القرآن الكريم بتزكية النبي ﷺ تزكية عظيمة لم تكن لأحد غيره، أظهر الله تعالى بها فضله ﷺ وعظيم منزلته، وما اختصّه به من الفضل، وما جبله عليه من الأخلاق العظيمة، وما تحلّى به من صفات الكمال البشرية.

ومن شأن العلم بذلك أن يزيد المسلم بصيرة بجوانب عظيمة من رسالة النبي ﷺ، تتمثل في شخصية النبي ﷺ التي زكاها الله تعالى أعظم ما زكّى به بشراً، إذ اختاره الله تعالى لختام الرسالات، والله تعالى أعلم حيث يجعل رسالته.

كما يزداد فرحاً بنعمة الله تعالى عليه إذ كان من أمة النبي ﷺ، ليزداد تمسكاً بسنته، وثباتاً على هديه، واستقامة على شرعه.

وحسبنا أهميةً بهذه الدراسة أنَّ المزكّي هو الله تعالى، والمُزكّى هو النبي محمد ﷺ، الذي اختاره الله تعالى لتزكية الناس، كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة: ٢].

۞ الدراسات السابقة:

مسائل هذا البحث مبثوثة في كتب التفسير وكتب الحديث وشروحاته، وكتب السيرة النبوية، لذا أحببت جمع أصول مسائل هذا البحث على ضوء ما ورد في القرآن الكريم، ليستطيع القارئ أن يفرّع عليه نظائره، ولم أجد من أفرد هذا الموضوع بالبحث، فلذلك استعنت الله تعالى وجعلت عنوانه:

تزكية الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في القرآن الكريم.

۞ حدود الموضوع:

جمع ما ورد في القرآن الكريم من تزكية الله تعالى للنبي ﷺ، ومن ثمَّ ترتيبها حسب موضوعاتها، ودراستها، والمراد من التزكية في هذه الدراسة، التزكية التي تتمثل في شخص النبي ﷺ، كتزكيته في نفسه، وفي عقله، وفي سمعه، وفي بصره، ونحو ذلك، على أنَّ هذه الدراسة لا تعدو أن تكون أنموذجًا لتزكية الله تعالى لرسوله محمد ﷺ في القرآن الكريم، وليست كل التزكية الإلهية لنبينا محمد ﷺ في القرآن الكريم.

۞ منهج البحث:

سلك الباحث منهج التتبع والاستقراء للآيات التي فيها تزكية للنبي ﷺ من القرآن الكريم، وذلك على مفهوم معنى التزكية الوارد في التمهيد، وإبراز معنى ذلك، من خلال بيان معنى الآية، وما يشرحها من السنة النبوية، وأقوال أهل العلم، وانتخب منها ما هو أصل في موضوعها.

كما التزم منهج البحث العلمي في العزو والتوثيق ونسبة الأقوال لأصحابها، وعزو الآيات بذكر السورة ورقم الآية، وكذلك تخريج الأحاديث مع ذكر حكم أهل العلم عليها، وإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بالعزو إليهما، مع ضبط الغريب من الألفاظ، وبيان معناه.

وقد اشتملت الخطة على تمهيد، وعشرة مطالب، وخاتمة.

وتفصيل ذلك كما يلي:

تمهيد: في معنى التزكية.

المطلب الأول: تزكيته في نفسه.

المطلب الثاني: تزكيته في عقله وفؤاده.

المطلب الثالث: تزكيته في بصره.

المطلب الرابع: تزكيته في كلامه.

المطلب الخامس: تزكيته في سمعه.

المطلب السادس: تزكيته في صدره.

المطلب السابع: تزكيته في معلّمه.

المطلب الثامن: تزكيته في تعليمه.

المطلب التاسع: تزكيته في أخلاقه.

المطلب العاشر: تزكيته في حياته كلها.

الخاتمة.

المصادر.

الفهارس.



تمهيد

في معنى التزكية

التزكية مأخوذة من الزكاء، وهي من مادة (ز ك و)، يقال: زكا يزكو زكاءً، وزكواً، والراء والكاف والحرف المعتلّ أصلٌ يدلّ على نماء وزيادة، ويقال: زكّى الرجل نفسه إذا وصفها وأثنى عليها.

وأصل معاني الزكاة في اللغة: الطهارة، والنماء، والبركة، والمدح(١).

قال الراغب: «أصل الزكاة: النّموّ الحاصل عن بركة الله تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدّنيويّة والأخرويّة، يقال: زكا الزّرع يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة...، ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حقّ الله تعالى إلى الفقراء، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة، أو لتزكية النّفس؛ أي: تنميتها بالخيرات والبركات، أو لهما جميعـًا، فإنّ الخيرين موجودان فيها»(٢).

وتطلق التزكية على الصلاح في الذات، وذلك أنَّ في النفس البشرية في أصل خلقتها كمالات وطهارات، قد يعترضها ما ينافيها، إما عن ضلال، أو تضليل، فتهذيب النفس وتقويمها يزيدها من ذلك الخير المودع في أصل خلقتها، فالتزكية هي تطهير النفس، ونفي ما يستقبح منها قولاً، أو فعلاً، وحقيقتها الإخبار عما ينطوي عليه الإنسان من الطهارة(٣).

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/ ١٧، ولسان العرب ١٤/ ٣٥٨.

(٢) المفردات في غريب القرآن ص٣٨٠.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢/ ٤٩، والتوقيف على مهمات التعاريف ص١٧٤، والمصباح المنير ص١٣٣.

فمعنى تزكية النفس هو نقاؤها من الخبائث، وكثرة خيرها وبركته، وتحقق الأسباب الجالبة للمدح والثناء(١).

هذا معنى التزكية من جهة أصلها اللغوي، وجاء بيان مفهوم التزكية في السنة النبوية من حديث عبد الله بن معاوية الغاضري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان، من عبد الله عَزَّوَجَلَّ وحده بأنَّه لا إله إلا هو، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه في كل عام، ولم يعط الهرمة ولا الدرنة ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لم يسألكم خيرها ولم يأمركم بشرها، وزكّى نفسه، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: أن يعلم أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ معه حيث كان»(٢).

ففي هذا الحديث بيّن النبي ﷺ العقد الجامع لمعنى التزكية، وهي أن يكون المسلم في كل شؤونه على حال المراقبة لله تعالى، واستشعار اطلاع الله تعالى عليه، إذ لا تخفى عليه خافية، ومن أثر ذلك أن تزكو نفسه بفعل الصالحات، ومجانبة السيئات.

والتزكية نوعان(٣):

الأول: تزكية فطرية جبلية، وهي الفطرة التي يُولد عليها الإنسان، وهي تعني النقاء والصفاء والإيمان الفطري بالله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾[الكهف: ٧٤]، والنفس الزكية هي المطهرة التي لا ذنب لها، ولم

(١) ينظر: التحرير والتنوير ١١/ ٢٣، و٣٠/ ٣٧١.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في المعجم الصغير، رقم الحديث (٥٥٥)، وصححه الألباني في السلسة الصحيحة ٣/ ٣٨.

(٣) ينظر: موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ٩/ ٢٢.

تذنب قطّ لصغرها، ولم تجن شيئاً[١].

الثاني: التزكية المكتسبة، وهي التي يكتسبها الإنسان في حياته بتطهير نفسه من السوء وما لا يرضي الله تعالى، وتحليتها بالإيمان والأعمال الصالحة، والاستجابة لدعوة الرسل -عليهم السلام- كما قال الله تعالى تنويهاً بشأن هذه التزكية المكتسبة بعد أحد عشر قسماً، وهو أطول قسم ورد في القرآن الكريم، قال في جواب ذلك القسم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[الشمس: ٩]، ليبين أن الفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، قد تحقق فيمن زكّى نفسه[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾[فاطر: ١٨]، والمعنى: «ومن يتطهر من دنس الكفر والذنوب بالتوبة إلى الله، والإيمان به، والعمل بطاعته، فإنما يتطهر لنفسه»[٣].

والتزكية منها المحمود، ومنها المذموم، فأما المحمود منها فهو كان من قبيل تزكية الإنسان نفسه بفعله، التي هي التزكية المكتسبة، كما تقدم أنفاً.

وأما المذموم منها فهو ما كان من قبيل تزكية الإنسان نفسه بمدحها والثناء عليها بالقول، وذلك ما نهى الله تعالى عنه بقوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢]؛ أي: لا تمدحوها على وجه نسبتها «إلى زكاء الأعمال والطهارة عن المعاصي، ولا تثنوا عليها واهضموها، فقد علم الله منكم الزكي والتقي قبل إخراجكم من صلب آدم، وقبل إخراجكم من بطون أمهاتكم»[٤].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١٥/ ٣٤٠.

(٢) ينظر: تفسير أبي السعود ٩/ ١٦٤.

(٣) تفسير الطبري ١٩/ ٣٥٥.

(٤) تفسير البحر المحيط ٨/ ١٢٤، وينظر: المفردات في غريب القرآن، ص:٢١٨، وتفسير ابن =

ومادة (ز ك و) وردت في القرآن الكريم في تسعة وخمسين موضعاً بصيغ واشتقاقات مختلفة، جاءت بصيغة الفعل الماضي، والفعل المضارع، وصيغة المبالغة، وصيغة أفعل التفضيل، وصيغة المصدر، وهي أكثر الصيغ وروداً في القرآن الكريم(١).

ويجمع معانيها في استعمال القرآن الكريم أربعة معاني(٢):

الأول: الصلاح والطهارة.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١] ، قال ابن جرير: « خيراً من الغلام الذي قتله، صلاحاً ودينا»(٣).

الثاني: الثناء والمدح والرفعة والبراءة من الذنوب.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، أي: «لا تشهدوا لأنفسكم بأنَّها زكية بريئة من الذنوب والمعاصي»(٤)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[النساء: ٤٩]، وهم «الذين يزكون أنفسهم من اليهود فيبرِّئونها من الذنوب ويطهرونها»(٥).

=

كثير ٧/ ٤٦٢.

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص٣٣١.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز لابن عطية ٨/ ٦٢٩، والوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز للدامغاني، ص:٢٤٩، والتحرير والتنوير ٢٩/ ٢٩٧، والتفسير الموضوعي للقرآن الكريم ٩/ ٩، والتزكية بالقرآن الكريم، ص ١٤.

(٣) تفسير الطبري ١٥/ ٣٦٠.

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٧١.

(٥) تفسير الطبري ٧/ ١٢٤.

الثالث: النماء والزيادة.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[الشمس: ٩]، أي: قد أفلح من زكّى نفسه بطاعة الله تعالى(١).

الرابع: أداء الفريضة الشرعية.

وذلك بمعنى: أداء الزكاة الشرعية والصدقات، كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴾[المؤمنون: ٤]، وأطلقت الزكاة هنا على إنفاق المال لوجه الله مجازاً، لأنَّ القصد من ذلك المال تزكية النفس، أو لأنَّ ذلك يزيد في مال المعطي، فأُطلق اسمُ المسبَّب على السبب، واستعمال لفظ الزكاة في معنى المال المبذول لوجه الله، من مصطلحات القرآن التي زادها على المعنى اللغوي(٢).

المطلب الأول

تزكيته في نفسه

لقد زكّى الله تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ في نفسه، وذلك يتمثل في تطهيره من الأدران الحسية والمعنوية، وبتكثير خيراته ومباركتها، وبمدحه وثنائه عليه، وهذا قد جمع معاني التزكية المتقدم ذكرها في التمهيد، وبيان ذلك فيما يلي:

أولاً: طهّره الله تعالى من الأدران المعنوية بغفران ما تقدم من ذنبه وما

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٤١٢.

(٢) بتصرف: التحرير والتنوير ١٨/ ١٢.

تأخر، وذلك في قول الله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ٢]، وهذه من خصائص النبي ﷺ لم يشركه فيها أحد من العالمين، وهذا فيه تشريف عظيم للنبي ﷺ، وبيان مقامه عند الله تعالى.

وذلك في شأن الفتح وهو صلح الحديبية الذي كان مقدمة لفتح مكة، ومعنى ذلك: أنَّ الله جعل عند حصول هذا الفتح غفران جميع ما قد يؤاخذ الله تعالى على مثله رسله، حتى لا يبقى لرسوله ﷺ ما يقصر به عن بلوغ نهاية الفضل بين المخلوقات، فجعل هذه المغفرة جزاءً له على إتمام أعماله التي أُرسل لأجلها، من تبليغ الرسالة، والجهاد في الله حق جهاده، والنَّصَب، والرغبة إلى الله، وجميع أنواع الشكر التي أفصح عنها النبي ﷺ لما سُئل عن طول قيامه في صلاة الليل حتى تتفطر قدماه، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»(١).

والمعنى أنَّ الله تعالى قد فتح له ذلك الفتح المبين، ليشكر الله تعالى ويحمده على ذلك، فيغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر(٢)، وقد غفر الله تعالى له ﷺ أعظم مغفرة، وهي المغفرة التي تليق بأعظم مَن تاب على تائب، قال ابن كثير «هذا من خصائصه -صلوات الله وسلامه عليه- التي لا يشاركه فيها غيره، وليس في حديث صحيح في ثواب الأعمال لغيره غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهذا فيه تشريف عظيم لرسول الله ﷺ، وهو -صلوات الله وسلامه عليه- في جميع أموره على الطاعة والبر والاستقامة التي لم ينلها بشر سواه، لا من

(١) أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عائشة، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم الحديث: (٢٨٢٠).

(٢) ذكر هذا المعنى ابن جرير، ينظر تفسيره ٢١/ ٢٣٧.

الأولين، ولا من الآخرين، وهو أكمل البشر على الإطلاق، وسيدهم في الدنيا والآخرة»(١).

وكذلك في قوله تعالى من سورة الشرح: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾[الشرح: ٢]، فقد فُسّر الوزر هنا بمثل معنى الآية التي من سورة الفتح ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ٢]، كما ذكر ذلك ابن كثير(٢).

ومن تمام تزكية الله تعالى للنبي ﷺ بتطهيره أن أمره في أوائل النبوة بالطهارة الحسية في ثيابه، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾[المدثر: ٤]، والثياب في هذه الآية يراد بها الثياب الحسية، كما يراد بها أيضاً ما تنطوي عليه النفس من الأخلاق والنيّات(٣).

ثم أمره الله تعالى صراحةً بالطهارة المعنوية من كل ما أوجب العذاب من الأعمال(٤)، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[المدثر: ٥]، والرجز يطلق في اللغة على العذاب، «وعلى تقدير كونه العذاب فلا بد من حذف مضاف، أي: اهجر أسباب العذاب المؤدية إليه»(٥).

وكذلك يطلق على الأصنام والأوثان(٦)، «ويحتمل أنَّ المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها، ظاهرها

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٣٢٨.
(٢) ينظر: تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٢، وتفسير ابن كثير ٨/ ٤٣٠.
(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٢٦٣.
(٤) ينظر: تفسير البغوي ٨/ ٢٦٥.
(٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١٠/ ٥٣٥، وينظر: تفسير الطبري ٢٣/ ٤١٠.
(٦) ينظر: تفسير الطبري ٢٣/ ٤١٠.

وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه»[١].

ومؤدّى معنى الرجز -سواء أطلق على العذاب، أو على الأصنام والأوثان- واحد، إذ هو أمر بترك كل ما يسخط الله تعالى من الأقوال والأفعال والاعتقادات، التي هي سبب للعذاب.

وهذا على القاعدة المشهورة أنَّ التخلية قبل التحلية، فلما زكاه الله تعالى بتطهيره من الأدران الحسية والمعنوية، قال الله تعالى في آية سورة الفتح بعد ذكر غفران ما تقدم وما تأخر من الذنوب: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]، وبيانه في ما يلي:

ثانيًا: إتمام النعمة على النبي ﷺ وهدايته للصراط المستقيم، وهذا من قبيل التحلية بعد التخلية.

وإتمام النعمة عليه، إعطاؤه ما لم يكن أعطاه إياه من أنواع النعمة الدنيوية والأخروية، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى: ٥]، وهذه النِعَم من عموم الخير العظيم الذي نوّه الله تعالى بشأنه في قوله: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾[الكوثر: ١]، ومن تمام النعمة على النبي ﷺ أن أتمّها على أمته كذلك، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[المائدة: ٣]، فشمل تمامُ النعمة على النبي ﷺ خيراتِ الدنيا والآخرة وبركاتِهما، فما أعظمها من زكاة[٢].

والهداية للصراط المستقيم، هي الهداية لما شرعه الله تعالى من الشرع

---

(١) تفسير السعدي، ص: ٨٩٥.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير٧/ ٣٢٨، والتحرير والتنوير٢٦/ ٤٨.

العظيم والدين القويم، إذ نوّه الله تعالى بشأنها في قوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾[الجاثية: ١٨].

ولكن هداية الله تعالى للنبي ﷺ هنا هداية خاصة، سيما وأنَّ هذه الآية نزلت بعد صلح الحديبية، وهي هداية «أعطاه إياها بعد فتح الحديبية...فإنَّ السالك إلى الله لا يزال يتقرّب إليه بشيء بعد شيء، ويزيده الله هدى بعد هدى»(١)، وهذا من أعظم تزكية الله تعالى لعباده، أن يزيدهم من الهداية والاستقامة: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[محمد: ١٧]، والنبي ﷺ له في ذلك النصيب الأوفى، والقدر الأزكى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾[النور: ٢١].

ثالثًا: رفع الله تعالى ذكر النبي ﷺ، وجعل له من الذكر الحسن، ولسان الصدق، والثناء الصالح ما لم يجعله لأحد من الخلق، وهذا مدلول قوله الله تعالى: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[الشرح: ٤] ، ومن رفع ذكره قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فقد رفع الله تعالى ذكر النبي ﷺ في الملأ الأعلى، كما رفعه في الأرض، وذلك أنَّ الله تعالى لا يُذكر إلا ذكر معه النبي ﷺ، وحسبك من ذلك الشهادتان، وهما أول أركان الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله.

وما أحسن ما قاله حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا المعنى مادحًا النبي ﷺ:

أغـــرُّ عليـــه للنّبـــوّة خـــاتمٌ مـن الله مشـهورٌ يلـوح ويشـهد

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية ٤/ ١٢٨.

وضمّ الإله اسم النّبيّ إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذّن أشهد
وشــقّ لــهُ مــنِ اســمِهِ ليجلّــهُ فذو العرشِ محمودٌ، وهذا محمدُ[١]

المطلب الثاني

تزكيته في عقله وفؤاده

من تزكية الله تعالى للنبي ﷺ أن زكاه في عقله، إذ قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، وهذه الآية وقعت جواباً للقسم الذي قبلها في قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، أقسم الله تعالى بالنجم إذا اختفى بعد ظهوره، لأنَّ في ذلك من الآيات ما أوجب القسم به، وجاء جواب القسم بالشهادة للنبي ﷺ بأنَّه على الحق والسداد، وأنَّه بارّ راشد تابع للحق[٢].

وذلك بنفي أمرين عنه، وهما:

الضلال: وهو عدم الاهتداء إلى الطريق الموصل إلى المطلوب، وهو مجاز في سلوك ما ينافي الحق.

والغواية: وهي فساد الرأي، وتعلقه بالباطل[٣].

فلما نفى الله تعالى عنه الضلال والغواية، كان دليلاً على اتصافه بكمال العقل، ووفور الرشد، وتضمن ذلك تزكية النبي ﷺ في كونه مهتدياً في علمه، حسناً في قصده.

---

(١) ديوان حسان بن ثابت، ص ٥٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٤٢.
(٣) ينظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ٩٢.

ولما كان النبي كما وصفه الله تعالى قال في موضع آخر: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾[التكوير: ٢٢]، وذلك لأجل الرد على شانئيه من الكفار حين اتهموا النبي ﷺ بما هم حقيقون به، قال الله تعالى عنهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٨]، وفي موضع آخر ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾[الدخان: ١٤]، «فأبطل قولهم إبطالاً مؤكداً ومؤيداً، فتأكيده بالقسم وبزيادة الباء بعد النفي، وتأييده بما أومأ إليه وصفه بأنَّ الذي بلّغه صاحبهم، فإنَّ وصف (صاحب) كناية عن كونهم يعلمون خلقه وعقله، ويعلمون أنَّه ليس بمجنون، إذ شأن الصاحب أن لا تخفى دقائق أحواله على أصحابه...وبأنَّه معروف عندهم بصحه العقل، وأصالة الرأي»[(١)].

وكيف يتصف بالجنون وذهاب العقل، وقد أعطاه الله تعالى قوت العقول وغذاء الأروح: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[القلم: ٢].

وكما زكّى الله تعالى النبي ﷺ في عقله، فكذلك زكّاه الله تعالى في الملأ الأعلى لما عرج به إلى السموات السبع، ورأى من آيات الله تعالى الكبرى، وهو مقام عظيم في ثبات القلب، وقوة العقل، وجزالة الرأي، سيما أنَّه وصل إلى مكان لم يصل إليه بشر، قال الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[النجم: ١١]، والفؤاد: هو العقل في كلام العرب، وقال به جماعة من المفسرين[(٢)].

وحسبنا في المقام الوصف الجامع للنبي ﷺ إذ وصفه الله تعالى بقوله في سورة الحاقة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[الحاقة: ٤٠]، والكريم هو النفيس من نوعه

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٧.

(٢) ينظر: تاج العروس ٨/ ٤٧٧، والتحرير والتنوير ٢٧/ ٩٩.

والأفضل، فكما أنَّ النبي ﷺ أفضل البشر، فكذلك هو أكمل الناس عقلاً، وأصحهم رأيًا، وذلك أنَ الله تعالى رتّب على طاعته الاهتداء، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ [النور: ٥٤]، ومفهوم ذلك أنَّ من لم يطعه ليس على الاهتداء.

المطلب الثالث

تزكيته في بصره

ورد في شأن معراج النبي ﷺ إلى السماوات العُلا أنَّه رأى آيات عظيمة، كما وصف الله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[النجم: ١١]، وهذه الآيات الكبرى هي غير ما رأى من سدرة المنتهى وما غشيها من الأمر العظيم، وجنة المأوى، ورؤية جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على خلقته وصورته، لقد رأى آيات كبرى من دلائل عظمة الله تعالى، مما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وفي ذلك الموقف المهيب، والمقام الرفيع الجليل زكّى الله تعالى النبي ﷺ في بصره إذ قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾[النجم: ١٧]. والزيغ: الميل عن القصد، والطغيان: تجاوز الحد. أي: ما مال بصره إلى مرئي آخر غير ما ذكر، ولا زاغ يمنة، ولا يسرة عن مقصوده، وما تجاوز البصر، هذا معنى ما قاله ابن عباس(١).

وهذا من كمال الأدب منه ﷺ، أن قام مقامًا عظيمًا في الملكوت الأعلى الذي لا عهد للبشر به، أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه، ولم يتجاوزه، ولم يَحِدْ عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، وما أحسن قول القائل في هذا المعنى:

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ٢٢/ ٤٤.

رأى جنة المأوى وما فوقها، ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها[١]

المطلب الرابع

تزكيته في سمعه

كان المنافقون في المدينة يؤذون النبي ﷺ بالقول والفعل، وكان من أذاهم القولي ما أخبر الله تعالى به في سورة التوبة: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾[التوبة: ٦١].

ومعنى قولهم: ﴿هُوَ أُذُنٌ ﴾[التوبة: ٦١]: الإخبار عن النبي ﷺ بأنَّه آلة سمع[٢]، وهي الأذن «أي: من قال له شيئاً صدقه»[٣].

وصَفوا النبي ﷺ أنَّه يسمع كل ما قيل له ويقبله من غير تمحيص ولا تحقيق، فهو كآلة السمع، يقبل كل ما يسمع من المسموعات من غير تمييز بين الصحيح والخطأ، والمقبول والمردود، ولذلك شبّهوا النبي ﷺ بآلة السمع وهي الأذن، بسبب أنَّهم يجدون من النبي ﷺ أدباً كريماً وخُلقاً عظيماً في الاستماع إلى أقوال الناس، والإقبال عليهم بسماحة نفس، وكرم خلق، ويعاملهم على حسب ظواهرهم، ولا يمتحنهم في سرائرهم، فيصفون هذا الأدب العظيم على غير حقيقته، ويقولون: هو أذن، يقصدون به المذمّة والتقصير بفطنته، وأنَّه سليم القلب، سريع الاغترار بكل ما يسمعه، «يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق

---

(١) تفسير ابن كثير ٧/ ٤٥٤.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٣/ ٥٢.

(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٥٠.

وكاذب»[١].

فردَّ الله تعالى عليهم قولهم، وقلب عليهم مقصدهم، وزكّى نبيه ﷺ في سمعه من جهتين:

الأولى: قال تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾[التوبة: ٦١]، وهذا إبطال للمعنى الذي أرادوه من الذم، وأخبر الله تعالى أنَّه ﷺ أذن خير، يسمع الخير ويعمل به، ولا يعمل بالشر إذا سمعه، كما أنه «أذن خير، يعرف الصادق من الكاذب»[٢]، وأذن خير يستمع إلى أقوالهم ومعاذيرهم بأدب عظيم، وخلق كريم، فيقبل أعذارهم ولا يُكاشفهم بنفاقهم، ولا يرميهم بكذبهم وخداعهم، بل يعرض عن ذلك كله، ويقبل منهم الظواهر، ويكل إلى الله تعالى أمر السرائر، فهو يعامل الناس بما أمر الله تعالى به من المعاملة بالعفو، والصفح، والأمر بالمعروف، والإعراض عن الجاهلين، «وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار الكذب، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم»[٣].

ولما تمادى المنافقون في خداعهم وكذبهم، وكان النبي ﷺ يقبل منهم، بيّن الله تعالى حالهم بألطف عتاب، ظَهَر به عظيم مقام النبي ﷺ من ربّه جَلَّجَلَالُهُ، قال الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[التوبة: ٤٣].

الثانية: قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

(١) تفسير السعدي ص ٣٤١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ١٧٠.
(٣) تفسير السعدي ص ٣٤٢.

مِنكُمْ ﴾[التوبة: ٦١] ، وهنا بيّن الله تعالى أنَّ النبي ﷺ مستمع خير، يصدق بالله تعالى وما جاء عنه، ويصدق المؤمنين في أقوالهم، لا أهل النفاق والكفر(١).

المطلب الخامس

تزكيته في كلامه

لما زكّى الله تعالى النبي في عقله كما تقدم، زكّاه في كلامه ونطقه، كأنَّ تزكيته في كلامه مسبّبٌ عن تزكيته في عقله، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم: ٣ - ٤].

و(ما) هنا نافية، نفت أن ينطق النبي ﷺ عن الهوى.

والهوى هو ميل النفس إلى ما تحبّه، دون أن يقتضيه العقل السليم الحكيم، ولذلك يختلف الناس في الهوى، ولا يختلفون في الحق، فالمراد بالهوى إذا أطلق أنَّه الهوى المجرد عن الدليل(٢).

والمعنى: أنَّ النبي ﷺ ما ينطق بما نطق به، عن هوى متسلّط من أهواء النفس، يتبّع به شهوة من الشهوات، أو يتصيّد به مطلباً من مطالب الحياة، بل ينطق عن وحي ورسالة من الله تعالى، فدلّ على أنَّ كلام النبي ﷺ مصون عن الهُجْر من القول، ويوضح هذا ويبيّنه ما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، وقالوا: أتكتب كل شيء تسمعه، ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الغضب والرِّضا،

---

(١) ينظر: تفسير الطبري ١١/ ٥٣٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/ ٩٣.

فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأومأ بأصبعه إلى فيه، فقال: اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق(١).

وهكذا كان كلام النبي ﷺ مشتملاً على الحق، حتى ولو كان على وجه الدعابة فإنَّه حق، كما جاء في حديث أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: إنِّي لا أقول إلا حقًا، قال بعض أصحابه: فإنَّك تداعبنا يا رسول الله، فقال: إنِّي لا أقول إلا حقًا(٢).

ولذلك جاء في وصف النبي ﷺ أنَّه لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا(٣)، والفاحش: ذو الفحش في كلامه، والمتفحّش: الذي يتكلّف ذلك ويتعمده(٤)، والنبي ﷺ منزّه عن ذلك، بما جُبل عليه من الأخلاق العظيمة.

ومن نافلة القول أنَّ النبي ﷺ أفصح الناس وأبلغهم، فقد أوتي جوامع الكلم، واختُصر له الكلام اختصاراً، وهذا مما فُضّل به النبي ﷺ على سائر الرسل والأنبياء، وحسبنا في ذلك أنَّ الله تعالى اصطفاه لإنزال أعظم كتبه وخاتمتها، وهو القرآن الكريم، والذكر الحكيم، والقول الفصل: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[النجم: ٣ – ٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب في كتاب العلم، رقم الحديث (٣٦٤٦)، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث (٦٥١٠)، وقال محققوه: إسناده صحيح.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم الحديث (٨٤٨١)، وقال محققوه: إسناده قوي.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب مناقب عبد الله بن مسعود، رقم الحديث (٣٥٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم الحديث (٢٣٢١).

(٤) مطالع الأنوار على صحاح الآثار ٥/ ١٩٨.

ولقد كان منطق النبي ﷺ من الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر في معانيه، ونُزّه عن التكلّف، كما وصفه الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[ص: ٨٦]، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشُيّد بالتأييد، ويسّر بالتوفيق، ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، كما جمع بين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، ومع استغنائه عن إعادته، لم تسقط له كلمة، ولا زلّت له قدم، ولا بارت له حجة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أصدق لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح عن معناه ولا أبين في فحواه من كلامه صلوات الله وسلامه عليه دائماً وأبداً إلى يوم الدين(١).

المطلب السادس

تزكيته في معلّمه

من تزكية الله تعالى للنبي ﷺ أن زكاه في معلّمه، وهو جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي علّمه الوحي، وذلك جاء في سورة النجم في بيان كيفية تلقي النبي ﷺ للوحي، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[النجم: ٥ - ٩] ، وكذلك ما جاء في سورة التكوير من أوصاف جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾[التكوير: ١٩ – ٢١].

وهذا تضمن أمرين:

---

(١) بتصرف، من كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ٢/ ١٧.

الأول: أنَّ الوحي الذي أعظمُه القرآن الكريم، علّمه جبريلُ ﷺ النبيَّ ﷺ، بأمرٍ من الله تعالى، كما قال الله تعالى ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾[الشعراء: ١٩٣ – ١٩٤].

الثاني: أنَّ جبريل له أوصافٌ وصفه الله تعالى بها، تزكيةً لتعليمه النبيَّ ﷺ، ومنها ما يلي:

أولاً: ﴿ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم: ٥]، أي: ملك شديد القوى، والمراد بشدة القوى: استطاعة تنفيذ ما يأمر الله به من الأعمال العظيمة؛ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه، وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين(١)، وجاء أيضاً مثل هذا الوصف في سورة التكوير ﴿ ذِى قُوَّةٍ ﴾[التكوير: ٢٠]؛ أي: «جعل الله مقدرة جبريل تخوّله أن يقوم بعظيم ما يوكله الله به مما يحتاج إلى قوة القدرة وقوة التدبير»(٢).

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾[النجم: ٦]، أي: صاحب مِرّة، والمرّة هي الشدة والقوة، وتطلق على قوة الذات بصحة الجسم وسلامته من الآفات والعاهات(٣)، وتطلق على متانة العقل وأصالته وحصافته(٤).

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٩٥، وتفسير السعدي، ص ٨١٨.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/ ١٥٦.

(٣) ينظر: تفسير ابن جرير ٢٢/ ١١.

(٤) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١٠/ ٨٤، وتاج العروس من جواهر القاموس =

ثانيـًا: ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النجم: ٦ – ٧]، وقوله: ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ ﴾ [النجم: ٦] معطوف على قوله: ﴿ عَلَّمَهُۥ ﴾[النجم: ٥]، أي: استوى جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ومعنى استوائه: قيامه بعزيمة لتلقي رسالة الله تعالى، كما يقال: استقل قائمـًا، فاستواء جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ هو مبدأ التهيؤ لقبول الرسالة من عند الله تعالى، ولذلك قيّد هذا الاستواء بجملة الحال في قوله: ﴿ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾، والأفق الأعلى هو من ناحية العلو من جهة السماء، وهذا فيه بيان كمال تلقّي جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الوحي من الله تعالى.

وما بعد ذلك من الآيات يبيّن كيف يلقي جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ الوحي على النبي ﷺ بعد أخذه عن الله تعالى(١).

ثالثـًا: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴾ [النجم: ٨-٩]، والدنو هو القرب، والتدلي هو الانخفاض من العلو إلى الدنوّ شيئـًا فشيئـًا، والمراد من ذلك هو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ حتى كان من النبي ﷺ قدر قوسين قربـًا منه، وهذا فيه بيان قرب جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من النبي ﷺ لتبليغ الوحي، فكان أقرب ما يكون منه، على بعد ما بين القوسين أو أدنى، وهو تعبير عن منتهى القرب.

وهذا القرب معطوف على ما قبله بالحرف (ثم) الدال على التراخي الرتبي، أي: أنَّ ما بعدها أهم مما قبلها، لأنَّ دنو جبريل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من النبي ﷺ لتبليغ الوحي هو الأهم في هذا المقام، وهذا فيه دلالة على كمال المباشرة

=

١٤/ ١٠٨.

(١) ينظر: التحرير والتنوير ٢٧/ ٩٦.

للرسول ﷺ بالرسالة والوحي، وأنَّه لا واسطة بينه وبين جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ[١]، وعند ذلك أوحى الله تعالى بواسطة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ما أراد وحيه للنبي ﷺ، ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[النجم: ١٠]، وبهذا بيّن الله تعالى كيفية تلقي النبي ﷺ للوحي.

رابعًا: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [التكوير: ١٩]، والرسول هنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وصفه الله تعالى بالكرم، والكريم من كل شيء هو النفيس من نوعه، والمعنى: أنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أشرف الملائكة[٢].

خامسًا: ﴿ مُّطَاعٍ ثَمَّ ﴾، أي: له وجاهة في الملأ الأعلى، لا يعصى له أمر.

سادسًا: ﴿ أَمِينٍ ﴾ على وحيه الله تعالى، ليس عليه بمتهم، كما قال الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾[الشعراء: ١٩٣].

وهذا عظيم جداً أنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ يزكّي عبده ورسوله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بهذه الأوصاف[٣]، فوصفه الله تعالى بالرسالة، والكرم، والقوة، والقرب منه تعالى، والمنزلة العالية والمكانة الرفيعة منه تعالى، وطاعة الملائكة له، والأمانة، وهذا كله يدل على عظم شأن جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وشأن الوحي، لأنَّ العظيم لا يوكّل إلا بعظيم، وهذا كله راجع إلى تزكية النبي ﷺ بتزكية معلّمه من الملائكة، وذلك لما ادّعى المشركون أنَّ النبي ﷺ يعلّمه بشر، كما حكى الله تعالى قولهم: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾[النحل: ١٠٣].

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير ٧/ ٤٤٦، وتفسير السعدي، ص ٨١٩.

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٣٣٨.

(٣) ينظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٣٣٩.

المطلب السابع

تزكيته في تعليمه

العلم من أعظم ما مُيّز به البشر، وبه أظهر الله تعالى فضل آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ على الملائكة، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، كذلك شرّف الله تعالى النبي ﷺ بالعلم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾[النساء: ١١٣].

والآية العظيمة والمعجزة الباهرة أنَّ النبي ﷺ نشأ أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ولا عهد له بعلم ولا تعليم، كشأن العرب يومئذٍ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[العنكبوت: ٤٨]، ثم جاء بقرآن لا عهد للبشر بمثله، في مبناه ومعناه، متضمن أعظم العلم وأكمله، أنزله الله تعالى بعلمه، قال الله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والباء في قوله: ﴿بِعِلْمِهِۦ﴾ للملابسة «أي: متلبّساً بعلمه، أي: بالغاً الغاية في باب الكتب السماوية، شأن ما يكون بعلمٍ من الله تعالى، ومعنى ذلك: أنَّه معجز لفظاً ومعنى، فكما أعجز البلغاء من أهل اللسان، أعجز العلماء من أهل الحقائق العالية»(١).

وهذا التعليم من الله تعالى للنبي ﷺ كان محلّ المنّة والنعمة العظيمة، إذ نوّه الله تعالى بشأن ذلك فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وقال تعالى:

(١) التحرير والتنوير ٦/ ٤٥.

﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾[يوسف: ٣]، وقال أيضاً: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾[الشورى: ٥٢]، فقد كان النبي ﷺ قبل الوحي لا يدري ما القرآن ولا الإيمان، ولم يكن في حسبانه ﷺ أن يُؤتى هذا العلم، أو كان يطمع في شيء منه، حتى أكرمه الله تعالى به رحمةً منه سبحانه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾[القصص: ٨٦]، ولذلك كان القرآن الكريم أعظم ما تُزكى به النفوس، ولذلك لما زكّى الله تعالى نبيه ﷺ بالعلم والقرآن، كان من صفات النبي ﷺ أنَّه يزكي أمته بما آتاه الله تعالى من العلم، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[الجمعة: ٢].

ولما كان القرآن المجيد هو أعظم العلم الذي آتاه الله تعالى النبي ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[الحجر: ٨٧]، زكّاه الله تعالى في خاصته من جهتين:

الأولى: صدق نسبته إلى الله تعالى، فقال: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾[الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

الثانية: أنَّه لا يكون لأحد من الخلق أن يتقوّله على الله تعالى، أو يفتريه من تلقاء نفسه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[يونس: ٣٧]، قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ [الشعراء: ٢١٠-٢١٢].

ولذلك كان القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]، وهذا كله يدل دلالة بينة على تزكية ما تعلّمه النبي ﷺ من العلم.

المطلب الثامن

تزكيته بشرح صدره

من تزكية الله تعالى للنبي ﷺ أن شرح صدره، الشرح المعنوي، والشرح الحسي، وخصه الله تعالى بذلك، وهذا يدخل في عموم تزكية الله تعالى للنبي ﷺ من جهة كثرة أسباب زيادة الخير ونمائه، وكثرة أسباب ذكره ومدحه والثناء عليه، ولذلك قال الله تعالى تقريراً بنعمته عليه ﷺ: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح: ١]، وبيان ذلك فيما يلي:

الشرح في أصل اللغوي يدلّ على الفتح والبيان، من ذلك شرحت الكلام شرحاً، إذا بينته، واشتقاقه من تشريح اللحم بفصل أجزاءه بعضها عن بعض، ومنه الشريحة للقطعة من اللحم، ويطلق مجازاً على انفعال النفس بالرِّضا بالحال المتلبّس بها(١).

وشرح صدر النبي ﷺ له معنيان على مقتضى النصوص الواردة في ذلك، وبيانه كما يلي:

الأول: الشرح المعنوي وهو المراد بقول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١]، وجاء ذلك بأسلوب الاستفهام التقريري، والمقصود به تذكير النبي

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة ٣/ ٢٦٩، ولسان العرب ٢/ ٤٩٧، والتحرير والتنوير ٣٠/ ٤٠٨.

ﷺ بهذه المنّة العظيمة، وأنَّ انشراح الصدر من أعظم النعم.

والنبي ﷺ كلّفه الله تعالى بمهمة عظيمة جسيمة، وهي بلاغ الرسالة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن الله تعالى، وهذه المهمة لا يمكن أن تتهيأ لأحد إلا أن يشرح الله تعالى صدره لذلك، وشرح الصدر على هذا المعنى: توسيعه لقبول أمر الله تعالى وشرائع الدين، واحتمال كل عسر في ذلك، قال ابن كثير: «أي: نورناه وجعلناه فسيحًا رحيبًا واسعًا كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾[الأنعام: ١٢٥]»(١).

ولأجل ذلك كان النبي ﷺمثالاً عظيمًا في بلاغ الرسالة، والتعبّد لله تعالى، واحتمال مشاق الدعوة وجفاء الناس، وما ينوبه من أحداث الحياة، وكانت سيرته وأيامه مثالاً حيّا على شرح صدره، فكان من أثر ذلك أن كان رحمة للعالمين.

الثاني: الشرح الحسي، وذلك بشق صدر النبي ﷺ شقًا حسيًا، كما في حديث أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ أتاه جبريل ﷺ وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشقّ عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه عَلَقَة(٢)، فقال هذا حظّ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لَأَمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني: ظِئْرَه- فقالوا: إنَّ محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع(٣) اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره(٤)، وهذا كما هو ظاهر الحديث وقع في أوائل حياته لما كان مسترضَعًا.

---

(١) تفسير ابن كثير ٨/ ٤٢٩.

(٢) العَلَقَة هي قطعة الدم، والعَلَق الدم، ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس ٢٦/ ١٨١.

(٣) أي: متغير اللون، ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ص ٩٣٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات =

وجاء أيضـًا في حديث الإسراء والمعراج الطويل عن أبي ذر أنَّ رسول الله ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ﷺ ففرج صدري ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانـًا فأفرغه في صدري ثم أطبقه(١).

والذي يظهر أنَّ شق صدر النبي ﷺ وقع مرتين، مرة لما كان مسترضَعـًا في بادية بني سعد، كما في حديث أنس بن مالك، ومرة ليلة الإسراء والمعراج، كما في حديث أبي ذر، وذكر الحافظ ابن حجر أنَّ الشق الأول كان لاستعداده لنزع العلقة التي قيل له عندها: هذا حظ الشيطان منك، وهذه العلقة المنتزَعة عنه هي القابلة للوساوس والمحرِّكة للشهوات، وكان هذا في زمن الطفولة، لينشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان.

والشَّق الثاني كان لاستعداده للتلقي الحاصل له في تلك الليلة ليلية الإسراء والمعراج(٢).

وأما جعل الإيمان والحكمة في إناء وإفراغهما، فمعناه -والله أعلم- أنَّ الطست كان فيها شيء يحصل به كمال الإيمان والحكمة وزيادتهما، فسمي إيمانـًا وحكمة، لكونه سببـًا لهما وهذا من أحسن المجاز(٣).

وبما تقدم يتضح أنَّ الله تعالى قد زكّى النبي ﷺ بشرح صدره الشرح الحسي

=

وفرض الصلوات، رقم الحديث (١٦٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء، رقم الحديث (٣٤٩).

(٢) فتح الباري لابن حجر ٧/ ٢٥٧، والمفهم لما أشكل من تلخيص مسلم ١/ ٣٨٢.

(٣) شرح النووي على مسلم ٢/ ٢١٨.

من جهتين:

من جهة أنَّه حفظه وعصمه من وساس الشيطان وكيده، فلم يُسلط عليه، إذ زكّاه الله تعالى بتطهير نفسه من تسلّط الشيطان عليه، الذي هو مصدر الفساد والإفساد(١).

ومن جهة أنَّ صدره الشريف غُسل بماء زمزم، ثم مُلئ حكمة وإيمانـًا، فحاز الكمالات البشرية من جميع وجوهها.

المطلب التاسع

تزكيته في أخلاقه

جاء في القرآن الكريم ثناء الله تعالى على رسله وأنبيائه السابقين بما اتصفوا به من أخلاق كريمة، ويُذكر لكل نبيّ صفات معيّنة، فمن ذلك على سبيل المثال ما قاله الله تعالى عن الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾[هود: ٧٥]، وعن إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، وعن أيوب: عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[ص: ٤٤]، وأما حين وصف سيد ولد آدم محمداً ﷺ بيّن أنَّه حاز من الكمالات والفضائل ما تفرّق في غيره من الأنبياء والرسل، فقال أعظم ما أثنى به على بشر: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[القلم: ٤].

وهذه الجملة التي حوت أربع كلمات، استوعبت ما كان عليه النبي ﷺ من

(١) ينظر: مجلة الدراسات العقدية العدد العشرون، ص ٢١٠، بحث بعنوان: عصمة الأنبياء والرسل قبل النبوة.

كريم الصفات، وعظيم الأخلاق، ووصّفت توصيفاً دقيقاً ما كان عليه النبي ﷺ من خُلُق، وشرح ذلك وبيانه على وجه التفصيل هو كل ما جاء في السيرة النبوية، من بعثته إلى لحاقه بالرفيق الأعلى، وما أحسن ما فُسّرت به هذه الآية قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما سئلت عن خلق رسول الله ﷺ، قالت: كان خلقه القرآن[1]، «ومعنى هذا: أنَّه ﷺ صار امتثال القرآن، أمراً ونهياً سجية له، وخُلُقاً تطبّعه، وترك طبعه الجبلي، فمهما أمره القرآن فعله، ومهما نهاه عنه تركه، هذا مع ما جبله الله عليه من الخلق العظيم، من الحياء والكرم والشجاعة، والصفح والحلم، وكل خلق جميل»[2].

والخُلُق معناه: طباع النفس، والسجية المتمكنة في النفس التي تبعث على عمل يناسبها من خير، أو شر، وأكثر إطلاقه على طباع الخير إذا لم يُتبع بوصف.

والعظيم: هو الرفيع القدر[3].

وبتركيب جملة هذه الآية ندرك قدر تزكية الله تعالى للنبي ﷺ في أخلاقه، وذلك يتضح بما يلي:

أولاً: تأكيد الجملة بأدوات التأكيد الثلاثة: حرف (إنَّ) ولام الابتداء، وتقديم المجرور في ﴿لَعَلَىٰ خُلُقٍ﴾.

ثانياً: إفادة حرف الجر (على) الذي يفيد الاستعلاء المجازي، والمراد منه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث (٧٤٦).

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٨٩.

(٣) التحرير والتنوير ١٩/ ١٧١، ٢٩/ ٦٣.

التمكن، بمعنى أنَّ النبي ﷺقد تمكن من الأخلاق العظيمة.

ثالثًا: تنكير ﴿ خُلُقٍ ﴾ الدال على عظم قدر ذلك الخُلُق، لأنَّ التنكير يدل على التعظيم.

رابعًا: وصف الخُلُق بأنّه ﴿ عَظِيمٍ ﴾[1].

والخلق العظيم الذي كان عليه النبي ﷺ هو الخلق الأكرم في نوع الأخلاق، وذلك هو البالغ أشد الكمال المحمود في طبع الإنسان، لاجتماع مكارم الأخلاق في النبي ﷺ، فهو حسن معاملته الناسَ على اختلاف الأحوال المقتضية لحسن المعاملة، فالخلق العظيم أرفع من مطلق الخلق الحسن[2].

وحسبك بهذه التزكية العظيمة أنَّها شهادة من الله العلي الكبير جَلَّجَلَالُهُ للنبي ﷺ بعظمة أخلاقه، فأيُّ بشرٍ نال من التزكية في أخلاقه مثل ما ناله النبي ﷺ، ومن ذا يستطيع شرح هذه الأخلاق العظيمة التي كان النبي ﷺ عليها، إلا أن يدمن النظر في سيرته لينهل من تلك الأخلاق العظيمة طاقته وقدرته.

والآيات التي تحدثت عن بعض أخلاق النبي ﷺ مبثوثة في القرآن الكريم، منها على سبيل المثال: قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله تعال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ

(١) ينظر: تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه ١٠/ ٧٢

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ٦٤.

فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ ﴾[الأحزاب: ٥٣].

المطلب العاشر

تزكيته في حياته كلها

وبعد ما تقدم من تلك المباحث من أفانين تزكية الله تعالى للنبي ﷺ، فإنَّ خاتمتها أنّ الله تعالى قد عظّم حياة النبي ﷺ وشرّفها وزكّاها، وذلك بالقسم بها، ومن المعلوم أنَّ الأقسام في القرآن الكريم تكون بالأشياء العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى، أو الأشياء المباركة، ولم يرد في القرآن الكريم قسم بحياة أحد من البشر إلا بحياة الرسول الكريم ﷺ، إذ قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[الحجر: ٧٢].

روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس، في معنى قول الله تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ قال: «وحياتك يا محمد، وعمرك، وبقائك في الدنيا»(١).

وكذلك روى ابن جرير بسنده عن ابن عباس قال: «ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره»(٢)، «وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع، وجاه عريض»(٣).

وكلمة ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾ صيغة قسم، واللام الداخلة على لفظ (عَمْر) لام القسم، وأصله لغةً في العُمْر، فخُص مفتوح العين بصيغة القسم، لخفته، فهو قسم بحياة المخاطب به، وهو في الاستعمال إذا دخلت عليه لام القسم رفعوه على الابتداء

(١) تفسير الطبري ١٤/ ٩٢.
(٢) تفسير الطبري ١٤/ ٩٢.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٥٤٢.

محذوف الخبر وجوبـًا، والتقدير: لعمرك قسمي[١].

واتفق أهل التفسير في هذا أنَّه قسم من الله جَلَّجَلَالُهُ بمدة حياة محمد ﷺ، وأنَّ حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها، لما كان فيها من البركة العامة والخاصة، ولم يثبت هذا لغيره، ولذلك فالقسم بحياة النبي ﷺ من خصائصه[٢].

والله تعالى له أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق القسم بشيء من المخلوقات، لا بحياة النبي ﷺ، ولا بغيرها.

والقسم بحياة النبي ﷺ دليل على عظم شأن تلك الحياة النبوية، ودليل على ما اشتملت عليه من صفات كمال كانت محلّ ثناء الله تعالى وتزكيته، وهذه تزكية شاملة عامة لكل أحوال النبي ﷺ، فلا جرم أن كانت حياة النبي ﷺ رحمة للعالمين، إذ جعل الله تعالى النبي ﷺ ورسالته رحمة عامة شاملة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، وبانتهاء حياته ﷺ خُتمت الرسالات، وليس بعد ذلك إلا قيام الساعة.

---

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٦٨.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ١/ ٨٦، ومنية السول في تفضيل الرسول ﷺ ص٢٠، والخصائص الكبرى للسيوطي ٢/ ٣٢٢.

الخاتمة

الحمد لله على تمام هذا البحث، وفي هذه الخاتمة أشير إلى أبرز النتائج:

١. أنَّ الله تعالى فضل بعض الرسل على بعض، وخصَّ بعضهم بفضائل ليست لغيرهم.

٢. أنَّ من الإيمان برسالة النبي ﷺ الإيمان بخصائصها، وفضائلها.

٣. أنَّ الله تعالى لما ختم النبوة برسالة النبي محمد ﷺ، زكّاه تزكية تليق بختام الرسالات السماوية.

٤. أنَّ من توقير النبي ﷺ وتعظيمه وإجلاله، معرفة ما له ﷺ من الفضائل والخصائص، ومن ذلك تزكية الله تعالى للنبي ﷺ في القرآن الكريم.

٥. تزكية الله تعالى للنبي ﷺ تتمثل في جميع جوانب حياته، ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم صراحة، وذلك فيما يلي:

تزكية النبي ﷺ في نفسه بتطهيرها من الرذائل، وتحليتها بالكمالات والفضائل، وتزكيته في عقله وفؤاده، وتزكيته في بصره، وتزكيته في كلامه، وتزكيته في سمعه، وتزكيته في صدره، وتزكيته في معلّمه، وتزكيته في تعليمه، وتزكيته في أخلاقه، وفي خاتمتها تزكيته في حياته كلها، إذ أقسم الله تعالى بها، فكان ذلك جامعًا لكل فضيلة وكمال بشري.

والحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، المؤلف: ناصر الدين عبد الله بن عمر بن البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ.

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، المؤلف: محمد بن محمد العمادي أبو السعود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- البحر المحيط، المؤلف: العلامة أبو حيان الأندلسي، الناشر: دار الفكر.

- البيان والتبيين، المؤلف: عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، الناشر: مكتبة الخانجي ، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٩٨م.

- تاج العروس من جواهر القاموس، المؤلف: محمّد بن محمّد الزَّبيدي، تحقيق مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

- التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

- التزكية بالقرآن الكريم، مفهومها، وأهميتها، وأركانها، تأليف: أ.د طه عابدين، ود. ياسين قاري، ود. فخر الدين الزبير، ود. أحمد محمد رشاد، الناشر: معالم الهدى للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ.

- تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه، تأليف: الشيخ محمد علي طه الدرة، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ.

- التوقيف على مهمات التعاريف، المؤلف: عبد الرؤوف المناوي، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

- الخصائص الكبرى، المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين

السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير الطبري، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ.

- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، المؤلف: محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، المحقق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، دراسة وتحقيق: علي بن حسن بن ناصر الألمعي وغيره، الناشر: دار الفضيلة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

- دلائل النبوة، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن الأصبهاني، تحقيق: د. محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس، الناشر: دار النفائس، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ.

- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، المؤلف: أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

- ديوان حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

- زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٣٦هـ.

- صحيح البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، الناشر: دار ابن كثير،

اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

- صحيح مسلم، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

- سنن أبي داود، المحقق: شعيب الأرنؤوط، ومحمد كامل قره بللي، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ.

- سلسلة الأحاديث الصحيحة، وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٥هـ.

- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، المؤلف: القاضي عياض بن موسى اليحصبي، الناشر: دار الفيحاء، عمان، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

- فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، الناشر: دار السلام، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المؤلف: عبد الحق بن عطية الأندلسي، تحقيق: الرحالة الفاروق، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، وعبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ومحمد الشافعي الصادق العناني، الناشر: دار الخير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.

- مفاتيح الغيب، المؤلف: محمد بن عمر بن الحسن الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠ هـ.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد،

وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، تأليف: أحمد بن محمد الفيومي، دراسة وتحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية.

- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تأليف: الحافظ أحمد بن عمر القرطبي، تحقيق: د. محيي الدين مستو، وأحمد محمد السيد، ويوسف علي بديوي، محمود إبراهيم نزال، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الرابعة، ١٤٢٩هـ.

- المعجم الصَّغير للطبرانِي، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، المؤلف: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: المكتبة الإسلامية، إستانبول.

- معجم مقاييس اللغة، المؤلف: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

- مطالع الأنوار على صحاح الآثار، المؤلف: إبراهيم بن يوسف بن أدهم الوهراني، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الطبعة الأولى، ١٤٣٣هـ.

- موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لمجموعة من الباحثين، إشراف وتحرير مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٤٠هـ.

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين

يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ.

- منية السُّول في تفضيل الرسول ﷺ، المؤلف: أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، الملقب بسلطان العلماء، رواية: الحافظ شرف الدين أبي عبدالله محمد الميدومي، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، الناشر: دار الكتاب الجديد، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ.

- النهاية في غريب الحديث والأثر، المؤلف: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، أشرف عليه وقدم له: علي بن حسن الحلبي الأثري، الناشر: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز، المؤلف: الحسين محمد الدامغاني، تحقيق: عربي عبد الحميد علي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

۞ المجلات والدوريات

- مجلة الدراسات العقدية، الجمعية العلمية السعودية لعلوم العقيدة والأديان والمذاهب والفرق، العدد ٢٠، السنة العاشرة، محرم ١٤٣٩هـ.

فهرس الموضوعات

ملخص البحث ١٥
المقدمة ١٧
تمهيد: في معنى التزكية ٢١
المطلب الأول: تزكيته في نفسه ٢٥
المطلب الثاني: تزكيته في عقله وفؤاده ٣٠
المطلب الثالث: تزكيته في بصره ٣٢
المطلب الرابع: تزكيته في سمعه ٣٣
المطلب الخامس: تزكيته في كلامه ٣٥
المطلب السادس: تزكيته في معلّمه ٣٧
المطلب السابع: تزكيته في تعليمه ٤١
المطلب الثامن: تزكيته بشرح صدره ٤٣
المطلب التاسع: تزكيته في أخلاقه ٤٦
المطلب العاشر: تزكيته في حياته كلها ٤٩
الخاتمة ٥١
المصادر والمراجع ٥٢
فهرس الموضوعات ٥٧